رحلة حج يوانس فوقاس
في الأرض المقدسة
(في سنة ١١٨٥)

استهلال

لاحظنا فيما تقدم أن معظم الرحالة الذين زاروا فلسطين في أيام الحروب الصليبية، قد قدموا من الغرب الأوربي، أي كانوا من أتباع الكنيسة اللاتينية، ومن المقدر أن لجميع الرحلات مكانة عالية لمؤرخ الحروب الصليبية، فالمواد التي فيها وثائقية، وإذا كانت الغاية التي أعلن عنها الصليبيون من الارتحال إلى فلسطين هي الحج، نستفيد من الرحلات — فيما نستفيد — في دراسة طقوس الحج وتطورها أيام الحروب الصليبية، ولدى امتلاكنا لتقرير رحالة غير لاتيني، نقارب وقتها بين الطقوس اللاتينية والطقوس الأرثوذكسية ونقارن، لنعرف هل الخلافات بين الكنيستين قد وصلت إلى هذا الجانب؟.

والرحلة القصيرة التي نقدمها الآن كتبها رجل دين إغريقي أرثوذكسي اسمه يوانس فوقاس، وقد ولد يوانس في جزيرة كريت، وكان اسم أبيه متى، وقد التحق هذا الأب بالعمل الديري، أي صار راهباً، ومات في جزيرة باتموس Patmos ، وخدم يوانس في سن شبابه في جيش تحت قيادة مانويل كومينوس، وأورد في الفصل / ٢٤ / ذكر إسباني عجوز« الذي مارس لسنوات طوال تقدمت حياة الزهد والتأمل فوق صخرة قرب بحر أضاليا، حيث تحدثت أنا شخصياً إليه عندما كنت أخدم تحت لواء إمبراطورنا الرائع كومينوس بروفيروجنتوس»، وغالباً ما أشار إلى هذا الامبراطور نفسه في كتابه، وقد تزوج وأنجب ولداً ذكراً، لم نستطع التعرف إلى اسمه، وقد سلك فيما بعد مسلك أباه فصار راهباً، وقد زار الأماكن المقدسة في سنة ١١٨٥، وقد أمكن جمع هذه المعلومات من هامش مخطوطة رحلته، ونقرأ على هذا الهامش العبارة التالية:«رواية كتبها الكاهن جون، المقدس جداً فوقاس، الذي مارس العمل الديني في جزيرة باتموس، وذلك حول ما رآه في الأماكن المقدسة في سنة ١١٨٥» وقد كتب في بداية الكتاب العبارة التالية:«أنا ابن فوقاس الكريتي كتبت هذا، باسم....».

- ٢٧١٢ -

وصف مختصر

كتبه

يوانس فوقاس

للقلاع وللمدن من مدينة أنطاكية حتى القدس، وكذلك لسورية ولفينيقية وللأماكن المقدسة في فلسطين

١ — هل يتوجب علي أنا الذي تمتعت برؤية الأماكن المقدسة، وأبصرت المناطق التي تجلى فيها الرب بشخصه في إحدى المرات، وذلك عندما جلب شعبه اللاجيء وأخرجه من مصر بوساطة موسى مع شارات ومعجزات، وبقوة جبارة صعق الأمم وحكامها: سيحون ملك العموريين، وعوج ملك باشان، وجميع ممالك كنعان، ومدّ ذراعه فغرس هناك شعباً غريباً، زاد من تعداده، حسبما تحدثنا الكتابات المقدسة، وهذه الأماكن هي التي قدسها بالتجسيد المقدس لابنه الوحيد المنجب، وبإنجاز أعمال إعجازية متجددة بنا؟،وسبب سؤالي، هو أنني وحدي قد تمتعت بهذه المباركة، وقلدت سلوك النهم في تعامله مع الطعام، فأين يمكن أن نجد مثل ذلك السلوك المستقيم واللطف الأخوي، التي ظهر بحب أحدنا للآخر، وبذلك عّبرت الألطاف الخاصة في الطبيعة البشرية عن ذاتها، وبناء عليه، أرى من واجبي، بحسب ما أمتلك من قدرة، أن أحاول تصوير البلاد بالكلمات، وكأنها مرسومة على خريطة، وأن أقوم بشكل غير مباشر بتقديم الأوصاف كتابة لطلاب الدين، أي أوصاف الأماكن التي رأيتها بأم عيني مباشرة، وسيبدو عملي هذا عملاً عابثاً بالنسبة للذين رأوا هذه الأماكن، لأنه إذا كان الهدف من كتابتي هو تقليد المشاهد الحقيقي، عندها سوف تكون جميع التشبيهات أدنى من الأصل، ومن الواضح وقتها أنني سوف أمنحهم سروراً أقل مما ترسخ في أعينهم، فماذا إذن سيكون هدف كتابي ؟ يخيل إليّ أن الأشخاص الذين

لم يروا قط هـذه الأماكن الرائعة بـأعينهم، بل تواجهوا بشكـل متكرر مع الإشارة إليها، سوف يتعلمون بتمياز أكبر بوسـاطة كتابي، وأكثر من التعلم من الـذين تحدثـوا عنهم دون القيـام بتحديـد الذي هـم عليه، وينبغـي أيضـاً أن نكون قـادرين على تقـديم المزيـد من السرور حتـى إلى الذيـن رأوهم، وذلـك إذا ما راق لهم الإصغاء إلى روايـات حول ما سيكـون من الممتع رؤيته.

٢ـــ تقع مدينة أنطاكية الربانية على ضفاف نهر العاصي، وهي تشتهر بمسارح واسعـة، وبأعمدة جميلة، وبكثير مـن المعابد، وبأعـداد كبيرة من السكان، وبـوفرة من الثراء، ولهذا تفـوقت بمجدها على كـل مدن الشرق تقريباً، وإنما أطفأت الأيام مع أيدي البرابـرة ازدهارها، ومع ذلك مايزال بإمكانها أن تفخـر بأبراجها وبدفاعـاتها القوية، وبتدفق مياهـا الساحر، وبتوزع هـذه المياه، أثناء جـريان النهر بكل لطـف، ليقوم بالانتشـار هناك والإحـاطة بـالمدينة، والـدوران حول أبـراجها واحتضـانها بشكل رطـب، وبـالإضافـة إلى هذا، تتـزود بشكل مـدهش بـالمياه بـوساطـة أنهر صغيرة تتدفـق من نبـع قصطليا(بيت الماء)، الـذي تندفع ميـاهه بقـوة، وتسيل عبرعـدد كبير من الأقنيـة في جميـع أرجاء المدينـة، وتـرويها بـالمياه وذلـك بفضـل الأعمال الواسعـة، وذلك خـلال الجبال إلى المدينـة، وتقع خـارج الأسوار ضاحية دفني المشهورة، المزينـة بحدائق فيها جميع أنواع الأشجار، وبالجبـل الرائع الذي سكنـه سمعان الـرائع، وقرب هذا الجبـل أي جبل طوروس(أمـانوس) شعـاب جميلة بحث فيهـا قوم في العصـور الخوالي عن الرب ووجـدوه، وبين هؤلاء في هذه الأيام الـذين صانوا أرواحهـم، وهم يسكنـون في المنـاطـق الأكثـر كثافـة في هـذه الجبـال، ويتمتعـون بجمالها ويفتتنون، وينبع نبع بيـت الماء بين تلتين، وينعطف مجراه على طول سفح التل الذي هو الأقـرب إلى البحر، حيث يتدفق بشكل مفـاجىء بكميات مدهشة من الماء، ورأينا هناك رواقاً يغطـي النبع، حيث يتدفق الماء بوفرة،

فينقسم إلى نهرين، ويتم نقل مياه أحدهما بوساطة أقنية عالية، وبذلك صار نهراً هوائياً، ويصب من الأعلى في المدينة في جهة اليمين ويجري الفرع الآخر على الأرض في الجهة اليسرى من النبع، ويصب في المستنقعات، وبعد سقايته جميع مرج دفني، يلتحق بنهر العاصي من جهة اليسار، والجبال القائمة بين المدينة والبحر رائعة وذات منظر جميل، ومن الممتع جداً النظر إليها، لأن تخومها تصل إلى المدينة وإلى أرسوز، وتتصل هذه الجبال من جهة أخرى بجرف رأس الخنزير كما وتتصل من الجهة الثالثة بالرابية التي تدعى جبل الأقرع، ويجري نهر العاصي وسط عدد لايحصى من المروج ويرويها، ويلتوي حول قاعدة هذا الجبل، وبعد هذا يصب مياهه في البحر، وعاش على ذروة هذا الجبل رجل عظيم حياة تأمل، وحلق بقلبه، وحلق بجسده أيضاً، وبذل جهوده كي يطير في الهواء هو وجسده، فتعلق في منتصف الطريق فيما بين الرب والانسان،أما كيف تهيأت هذه الحياة الغريبة لهذا الرجل المقدس، فهذا ما سوف أشرحه لكم، فقد تمكن بأعمال الحجارين من حفر قمة هذا الجبل الرائع، وصنع بذلك من صخرة صماء حية، ونحت وسطها عموداً طبيعياً وقد اتخذ موقفه فوقه، ووضع قدمه على صخرة، حسبما جاء في الكتابات المقدسة، وبنى كنيسة جميلة اتجاهها نحو الشرق، وهي مكرسة للرب، وفيها اعتاد أن يجمع تلاميذه: وبذلك كان يبقى خارج الأبواب، ويمضون هم الليل بطوله في داخل الكنيسة، ويتعبدون الرب، وبذلك صاروا قديسين.

٣— والتالي لهذا ولمدينة أنطاكية هي مدينة اللاذقية، وهي مدينة عظيمة وكثيرة السكان، وهي أيضاً قد فقدت عظمتها، ويليها جبلة، أو«زبله»، ويلي جبلة قلعة اسمها أنطرطوس، أو طرطوس، وعلى هذه الصورة تقوم قلاع متنوعة على الساحل حتى طرابلس، وهناك في داخل البلاد سلسة جبلية عظيمة، يسكنها قوم يدعون«الحشيسية»، وهم من

الأمة المسلمة، لكنهم لايأخذون لا بالمسيحية ولا بعقيدة محمد(ﷺ)، إنما يعبدون الله وفقاً لهرطقة خاصة بهم، ويدعون المقدم بينهم باسم سفير الرب(شيخ الجبل)، ويتولى الذين يذهبون بناء على أوامره إلى حكام البلدان الكبيرة، قتلهم بالسيف، ويقفزون عليهم وهم غير متيقظين، ويهلكونهم فور إنجازهم لأفاعيلهم، وبعدها يقاتلون وهم قلة ضد حشد، وذلك بعد تنفيذهم لجريمتهم، ويعدون هذا بمثابة شهادة تجعلهم مخلدين.

٤— ويلي سلسلة الجبال هذه جبال لبنان، التي هي جبال جميلة جداً، وعظيمة الشهرة في أسفار العهد القديم، وهي أيضاً جبال ضخمة جداً، مغطاة بثوب من الثلج، المتدلي فوقها مثل جدائل الشعر، وتنمو فوقها بكثافة أشجار الأرز، والصنوبر، والسرو، وهي مزينة أيضاً بكميات هائلة من الأشجار المثمرة من مختلف الأنواع، والطرف الموازي للبحر مسكون من قبل المسيحيين، في حين يقطن المسلمون في الجانب المتجه نحو دمشق والعربية، ويندفع من شعابها وتجاويفها الكثير من الأنهار نحو البحر، وهي فائقة الجمال وباردة جداً عندما يأخذ الثلج بالذوبان، فيجعل الأنهار التي يصب فيها شديدة البرودة، وتقوم مدينة طرابلس عند سفوح هذه الجبال، التي بناها مؤسسها فوق شبه جزيرة، ذلك أن هناك نتوءاً، تفرع من جبل لبنان وامتد في داخل البحر على شكل لسان، ويرتفع هذا اللسان كثيراً في نهايته الشرقية، وعلى ذروة هذه الأرض المرتفعة وضع مؤسس المدينة أساساتها، وهذه المدينة صغيرة جداً بالنسبة لمساحة الأرض التي تشغلها، لكنها جديرة بالإعجاب بالنسبة لارتفاع أسوارها وجمال أبنيتها.

٥— وتأتي بعدها جبيل، وبعدها بيروت، التي هي مدينة واسعة وكثيرة السكان، ومن حولها سهول خصبة، وهي مزينة بميناء جميل، وهذا الميناء ليس ميناءً طبيعياً، وهو قد صنع بشكل فني، وهو يحتضن المدينة

على شكل هلال، وقد توضع عند النهايتين الأخيرتين للهلال برجان عظيمان على شكل قرنين، ويمتد من أحدهما إلى الآخر سلسلة تمنع السفن من الدخول إلى الميناء، وهذا المكان قائم على الحدود ما بين سورية وفينيقيا.

٦— ويأتي بعد هذا صيدا، والميناء المزدوج فيها، الذي أعجب المؤرخ(آخيل تاتيوس Achilles Tatius)فوصفه في(الكتاب الأول من روايته كليتوفون Clitophon)و ليوسيبي Leucippe، لأنك إذا ما زرت المكان مع مرساه، ومرساه الخارجي سوف تجد حقيقة متوافقة مع الوصف الذي قدمه في كتابته، وفي خارج المدينة وعلى مسافة حوالي ثلاث رميات سهم تقوم كنيسة، محاطة بأعمدة ذات طول كبير، ويوجد فوقها شرفة توضعت عليها صخرة ذات جوانب أربعة، يقول العامة بأن المسيح المخلص للعالم اعتاد أن يقف عليها، ويعلم الحشود.

٧— وتقوم قلعة الصرفند بعد صيدا، وقد بنيت فوق شاطىء البحر، ويوجد في وسط المدينة كنيسة مكرسة للنبي إلياس، وقد بنيت فوق موقع البيت ذي النافذة، الذي قدم له الضيافة.

٨— وتأتي مدينة صور بعد هذا، وهي المدينة التي تفوقت بجمالها على جميع مدن فينيقيا تقريباً، وهي مبنية مثل مدينة طرابلس فوق شبه جزيرة مشابهة، لكنها ذات حجم أكبر منها بكثير، وتمتلك أبنية أكثر جلالة وجمالاً مما هو موجود في طرابلس، ويقارن مرساها الخارجي ويشبّه بمرسى بيروت، مع أنه متفوق عليه بالحجم وبالجمال، وكذلك بارتفاع برجيه ، ويوجد خارج المدينة وعلى مسافة حوالي رميتي قوس، صخرة عظيمة جداً، جلس عليها، تبعاً للتقاليد، المسيح عندما بعث إلى داخل المدينة الحواريين المقدسين: بطرس ويوحنا، لشراء خبز، وقد مضيا وجلبا الخبز، ثم توجها معاً مع المخلص إلى نبع مجاور، يبعد حوالي الميل، حيث جلس المخلص أرضاً، وبعدما أكل مع الحواريين وشرب من الماء، بارك النبع،

وصدقاً لقد بقي النبع أعجوبة لانظير لها حتى هذا اليوم، ذلك أنه ينبع وسط مروج هناك، وهو يدهش عابري السبيل ويبهجهم، ويقال أيضاً أنه لاقعر له، وعمارته وشكله هو وفق مايلي: فالذين عملوه أولاً صدوراً عن الحب، تولوا بناء هذا النبع وأحاطوه ببرج ثماني الشكل، وقد رفعوه إلى علو مناسب، وبعدما بنوا الزوايا على شكل فتحات لتدفق المياه، عمروا أقنية رفعوها فوق قناطر عالية، وبذلك أرغموا الماء على الانصباب فوق المروج الموجودة تحت كل فتحة، وكأن هذه المياه صادرة عن أنبوب، وتنصب المياه بصوت مرتفع، وتتولى سقاية جميع المروج الموجودة حول النبع بكميات وافرة من المياه، والذي يقف فوق هذا البرج، مثل وقوفه فوق برج حراسة، يمكنه رؤية النباتات الكثيفة تحته، مع سقاية حقول القمح بشكل متواصل حتى وقت الظهيرة.

٩— وبعد هذا تقوم عكا، التي هي مدينة واسعة، وكثيفة السكان إلى حد جعلها تتفوق على جميع البقية، وهي تستقبل جميع سفن التجار، وإليها يقدم جميع الحجاج الذين قدموا من أجل المسيح سواء بالبحر أو بالبر، ومنها يقلعون، وقد فسد الهواء هنا بسبب التدفق الهائل للغرباء، ولهذا انتشرت مختلف أنواع الأمراض، التي غالباً ما تؤدي إلى وفيات متتالية بينهم، مما ينجم عنه روائح نتنة، وفساد للهواء، وسوء حظ للمدينة لاعلاج له، ويوجد على جهة اليمين منها الكرمل، وشاطىء بحر جميع بلاد فلسطين، وتحتوي المناطق الواقعة على اليسار: الجليل والسامرة.

١٠— والمكان الأول الذي يلي عكا هو الصفورية، وهي مدينة في الجليل، خالية من السكان تقريباً، وليس فيها ما يشير إلى ازدهارها فيما مضى، وتأتي بعدها قانا، وهي موقع حصين وصغير، فهذا حالها في هذه الأيام، وهنا حوّل مخلصنا الماء إلى نبيذ، ونقدم بعدها إلى مدينة الناصرة، التي بنيت في قعر وديان، قادمة من هضاب متنوعة، وتقف في وسطها في المكان الذي شهد معجزة عظيمة، حين أعلن رئيس الملائكة جبرائيل إلى

العـذراء أم الرب، وذلـك مـن خلال رحمة الـرب العظيمـة والثمينة عـن صنعه مـن أجل خـلاصنا المسيح ربنـا جسدياً، وتجد لـدى دخولـك من الباب الأول لهذه القـرية الكبيرة، كنيسـة جبرائيل رئيـس الملائكة، ومـن الممكن أن نرى هنـاك كهف صغير على طرف اليسار للمـذبح الموجود في الكنيسـة، ينبـع فيه مـاء يتـدفـق، ويجري على شكل نهر شفـاف، فهنـاك اعتـادت أم الرب الطـاهرة على القـدوم يـومياً ونضـح الماء، وذلك أثنـاء إعطائها من قبـل الكهنة إلى يوسف البار، ولدى إقـامتها في بيته، وتلقت في الشهر السـادس(من الحمـل) بالرائد(يـوحنا المعمـدان) الضمة الأولى مـن قبل جبرائيـل، وذلك أثنـاء نضحهـا للماء، كما جرت عـادتها، ولأنها ارتعبت كثيراً، عادت وهي ترتجف إلى بيت يوسف، حيث سمعت الملاك يقول:«سلام لك أيتها المنعم عليها» فأجـابته بقولها:«هو ذا أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك»، وبناء عليه تلقت كلمـة الرب في رحمها الطاهر، وجرى بعد هذا تحويل بيت يوسـف إلى كنيسة جميلة ويوجد على الجانب الأيسر من هناك كهف، ليس مفتوحـاً في بطن الأرض، بل على وجهها، وفم هذا الكهف مـزين برخـام أبيض، وفوقـه رسمت يـد رسام ملاك مجنـح نازل، قدم التحيات إلى العـذراء أم الرب وحمل إليها البشائر الطيبـة، وكان هذا الرسـام قد وجـد عملاًجنـائزياً في قبر، وهو قطعـة منسوجـة بالإبـرة، وقد رسمه وكـأنه كان يتحدث إليهـا، غير أن العذراء، ارتعبت بسبب الـرؤيا غير المتوقعة، واستدارت حول نفسها بكـل سرعة، وأسقطت من يديها كل شيء حتى الـلآلىء، وكانـت ترتجف وقد تـركت حجـرتها بسبب خـوفها، وقابلت امـرأة كانت قريبتها وصـديقة لها، وعانقتها بتحيات صـداقة، ثم إنها دخلت داخـل فم الكهـف، الذي تنـزل إليه بعـدة درجات، ووقتهـا تشهد بيت يـوسف القديم، الـذي فيه حسبما قلت من قبـل أعلن رئيس الملائكـة البشائر الطيبـة إلى العذراء عنـدمـا عادت مـن البئر إلى البيـت، ويوجد في البقعة التي وقعت عليها حـادثة الإعلان صليب قد نحت من صخرة سـوداء فوق رخـام أبيض، وفـوقها مـذبح، وعلى جهـة اليمين من

المذبح يمكن رؤية حجرة صغيرة، فيها اعتادت العذراء الدائمة أم الرب، أن تعيش، وعلى جهة اليسار من مكان الإعلان من الممكن رؤية حجرة صغيرة أخرى بلا نافذة، تقول مصادرنا المقدسة بأن المسيح ربنا قد قطن فيها بعد العودة من مصر حتى قتل يوحنا المعمدان صبراً، فوقتها — تبعاً للروايات المقدسة — عندما سمع بأن يوحنا قد تعرض للخيانة، ترك الناصرة، وسكن في كفر ناحوم، ويلي هذا سلسلة مكونة من تلال متنوعة، بينها مكان منحدر، إلى أسفله عزم اليهود على رمي مولانا، غير أنه عبر من بين وسطهم وذهب إلى كفر ناحوم.

١١— ويوجد خلف سلسلة التلال هذه سهلاً كبيراً، ويقوم هناك على مقربة من التلال جبل الطور، وهو جنة الأرض، وبهجة النفس، والسرور لكل ذوي الإيمان الصحيح، لأن هناك رعاية ربانية خاصة تظلله، وترسل نفحات النعمة الروحية، وهو هضبة مستديرة، ذات ارتفاع معتدل، يوجد على ذروتها ديرين، فيهما يعيش المسيحيون الذين نذروا أنفسهم إلى حياة الرهبنة، وينشدون رحمة الرب في مختلف اللغات، ويسكن في الدير الذي تغيرت فيه هيئة المسيح من أجل خلاصنا عدد من الرهبان اللاتين، والمكان الواقع إلى جهة الغرب من ذلك المكان المقدس، قد تقدس بالحضور المقدس للناصريين من كنيستنا، وقد وقع حادث التغيير المبارك لهيئة المسيح على قمة الهضبة، حيث يقوم الدير اللاتيني، وفيه يقع المذبح فوق المكان الذي تغيرت فيه هيئة الرب بين إلياس وموسى، وبين ثلاثة من نخبة حواريه هم: بطرس ،ويوحنا، وجيمس، وهذا المكان محاط بسياج نحاسي،ومن الممكن أن نرى فوق المكان الذي وقفت عليه قدما مولانا حلية بارزة بيضاء ناصعة جداً، وقد حفر عليها شكل الصليب المقدس، ويفوح منها رائحة طيبة لايمكن وصفها، وهي تبهج مشاعر الذين يزورونها، وعلى بعد رمية حجر خارج الدير هناك كهف صغير، دخله المسيح بعد تغييرهيئته الرائع، وأمر

حواريه بعدم إخبار أي إنسان بما رأوه حتى يقوم من الموت، ويوجد باتجاه الجانب الشمالي من الجبل كهف ملكيصادق، وهو جدير بالرؤية، لأنه حفر بأفواه عدة، ويوجد فيه تحت الأرض وفوقها غرف وأماكن للإقامة متنوعة، وحجيرات تستخدم بمثابة أماكن إقامة للزهاد، حيث أمضى عدد كبير من كبار القديسين حياتهم الزاهدة، وإلى جانب الكهف هناك كنيسة بنيت فوق المكان عينه الذي التقى فيه ملكيصادق بابراهيم لدى عودته من القتال، وباركه وجعله ضيفه، وإذا ما نظرت من هذه الهضبة باتجاه الشرق، سوف ترى سباخ الأردن وأقنيته، وهو النهر المبارك بين الأنهر، وإذا ما مددت بصرك أبعد سوف ترى أقساماً من لبنان، مما يتجه نحو الشرق، وهضبتين عظيميتين بينهما بنيت دمشق، وإذا ما حولت بصرك قليلاً إلى يسار الأردن، فسوف ترى بحيرة طبرية بشكل واضح وبدون أية مصاعب، ويظهر على الجهة المقابلة أرض مرتفعة قليلاً، فهناك بارك مخلصنا الأمواج، وأطعم الخمسة آلاف، وبعد القيامة أكل مع حواريه، وذلك بعد سحب المائة والثلاث وخمسين سمكة، وعلى الطرف الشمالي للهضبة نفسها، هناك سلسلة أخرى من الهضاب تحيط بالسهل على مسافة تقارب الاثنتي عشرة غلوة أو حتى أكثر، وتقوم في داخل الدائرة مدينة نين، حيث بعث المولى ابن الأرملة من الموت، وباتجاه الجانب الشرقي من المدينة نفسها يمكن رؤية مكان اسمه عين دور، وفيما بين الطور ونين وعين دور يجري نهر قيشون، الذي عنه يقول داود:«افعل بهم كما بمدين، كما بسيسرا، كما بيابين في وادي قيشون. بادوا في عين دور»(المزامير: ٨٣ / ١٠ — ١١).

١٢— وعلى مسافة سفر يوم واحد من هناك تقوم مدينة سبسطية، التي أعاد هيرود الطيطراخ عمارتها على شرف قيصر، وفيها أيضاً قطع هيرود الأصغر رأس المبجل يوحنا المعمدان، الذي لم يكن هناك قط من هو أعظم منه بين من ولدتهم النساء، وكان ذلك في وسط احتفال، وفي

وسط هذه المدينة هناك سجن ألقي فيه بسبب انتقاداته للهيروديين، وفيه قطع رأسه، وهذا السجن سجن تحت الأرض، ويقود إليه عشرون درجة هبوطاً، ويوجد في وسطه مذبح قائم فوق المكان الذي قطع فيه رأسه من قبل الجندي(سبكولاتور Speculator)ويوجد على جهة اليمين من هذا المذبح نعش، وضع فيه جسد زكريا المقدس، وهو والد الرائد(يوحنا المعمدان)، وهناك في الجهة اليسرى نعش آخر تمدد فيه جسد إليزابث المقدسة، التي هي أمه، وأودع كل جانب من جوانب السجن بقايا قديسين وحواريين للرائد(يوحنا المعمدان) ويقوم فوق السجن كنيسة قد وضع فيها نعشين، وقد عملا من رخام أبيض، يحتوي أحدهما — وهو الموجود في جهة اليمين — رماد جسد المبجل الرائد(يوحنا المعمدان)، في حين يوجد في الآخر جسد النبي إلياس، ويوجد فوق في وعاء ذهبي اليد اليسرى للرائد، وهي مغطاة من كل جانب بالذهب، وتقوم في وسط الجزء الأعلى من المدينة رابية، عليها قام في العصور القديمة قصر هيرود، حيث فيه جرت الحفلة، وفيه رقصت تلك الفتاة الخبيثة، وتسلمت رأس المعمدان جائزة لرقصها، وعلى كل حال صار المكان في الأيام الحالية، ديراً رومانياً، وكنيسة هذا الدير مغطاة بقنطرة، وهناك على الجانب الأيسر من المذبح حجيرة صغيرة، يوجد في وسطها ترصيعة من الرخام، موضوعة في قعر حفرة عميقة، فيها تمّ اكتشاف الرأس المقدس والمبجل للرائد، وذلك من قبل الملائكة، حيث كان قد دفن هناك في ذلك المكان من قبل الهيروديين.

١٣— ويلي هذا بعد رحلة تقارب الخمس عشرة غلوة Stadia شكيم، التي هي المدينة الرئيسة للسامرة، والتي دعيت فيما بعد باسم نابلس، وهي قائمة فيما بين هضبتين، وقد وضعت أساساتها على الأجزاء المنخفضة لكل منهما، وامتدت لمسافة معتبرة، وعلى هذه الجبال، أي على جهة اليمين(جرزيم)، هناك — وفقاً لروايات السامرة — تكلم الرب

مـع إبـراهيـم، وطلـب منـه التضحية بـاسحـق، وهنـاك أيضـاً — وفقـاً لتقاليدهم — حقق التضحية، وعلى كـل حال هم لايعرفون عما يتكلمون لأن الجبل المقصود هو جبل الجلجلة المقدس، الذي عليه عانى المخلص آلامـه من أجـل خلاص العـالم، وعند سفـح هذه الهضبـة المكان الـذي أعطاه يعقوب لابنه يوسف، وهناك أيضـاً بئر يعقوب نفسه، حيث جلس الرب عندما كـان منهكاً وتكلم مع المرأة السامريـة، وذلك حسبما جاء في الانجيل المقـدس، وقرب الهضبة نفسها قـالت المرأة للرب«تعبد أبـاؤنا في هذا الجبـل»، وعلم الـرب الناس جميعـاً بحديثـه معها، كيـف أن الذيـن يتعبدون بروح وبصدق حق لهم التعبد.

١٤— ويلاحظ أن المسـافة من السامرة إلى المدينة المقـدسة هي خمس وعشرون غلوة Stadia، والطريق كله مرصـوف بالحجارة، وعلى كل حال هـذه المنطقـة كلهـا جـافـة وبـلا مـاء، ومـع هـذا هـي مليئـة بـالكـروم وبـالأشجار، وتقـوم المدينـة المقدسـة وسـط وديـان وهضاب، وعلى هـذا منظرهـا رائع، لأنه في الوقـت نفسه تظهر المدينـة عالية ومنخفضـة، فهي عاليـة عندمـا تقارن بمنطقـة اليهوديـة، غير أنها منخفضة عنـدما تقـارن بالهضـاب المرتبطة بها، وينشطر هذا المكـان المقدس إلى شطريـن: المدينة المقدسة، التي هي مبنية على الجزء المنخفض من الرابية من جهة اليمين، ويصل إطـارها حتى الوادي، والجزء الأعلى، مـن هذا المكان مغطـى كله بالكروم، وهنـاك جرى رجم ستيفن، رائد الشهـداء، وإلى يسار هذا، وعلى الجانب الآخر من الوادي، يقوم جبل الزيتـون، حيث غالباً ما أحب الرب أن يتمشى، وقـد قدس المكـان كله بصلـواته، وبتعليمـه، وأخيراً بصعوده الرائع إلى الأب، ويقع صهيون المقدس أمام المدينة المقدسة، ويمتد باتجاه طرف اليمين منهـا، ووصفها هو كما يلي: هنـاك قلعة، فيها كنيسـة صهيون المقـدسة، التـي هي أم الكنـائس، وهـذه الكنيسة ذات حجـم كبير، ولها سقف مقنطـر، ويجد الداخل إليها مـن الأبواب الجميلة التي هـي هناك،

على جهة اليسار، بيت القديس يوحنا الإنجيلي، ففيه سكنت العذراء المثلثة البركات، بعد القيامة، وهناك أيضاً توفيت، ويوجد في ذلك المكان حجيرة صغيرة، محاطة بسياج حديدي، وعقدتين ترصيعيتين فوق البقعة التي سلمت فيها روحها إلى ابنها وإلى الرب، ويوجد على جهة اليمين من الكنيسة، وكذلك على جهة اليمين من المذبح، حجرة علوية، يقود إليها سلم فيه ستين درجة، ولهذه الكنيسة أربعة أقواس وقبة، وعلى جهة اليسار من الحجرة العلوية من الممكن رؤية المكان الذي تم فيه العشاء الأخير للرب، وفي البروز الموجود هناك نزلت الروح القدس على الرسل، وجرى في القسم الأسفل من هذه الكنيسة غسل (أقدام الحواريين)، ومقابلها توجد كنيسة قائمة في موقع البناء الذي دخله المسيح إلى الحواريين، مع أن الأبواب كانت مغلقة، وهنا دفن الرائد الشهيد ستيفن بعد رجمه، وقد نقل من قبل جمالئيل إلى مكان آخر، ويقوم في الجانب الشمالي من المدينة البرج الذي يدعى برج داود، وهو برج كبير جداً، ومع أن جميع الناس الذين يسكنون في القدس يعلنون أن هذا البرج هو برج داود، يبدو لي أن هناك أسباباً معقولة للاعتراض على هذا، لأن يوسفيوس أخبرنا بأن هذا البرج قد بني بوساطة رخام ملمع أبيض، هذا ويلاحظ وجود كل من هذا البرج والكنيسة، ثم هناك البرجين الآخرين اللذان بنيا فيما بعد من قبل هيرود، وأطلق عليهما اسمي فازليس Phaselis ، ومريمن، ويبدو مع هذا أن البرج (برج داود) قد بني بحجارة عادية، ولعل البرج الذي نراه في الأيام قد بني فوق أساسات برج قديم جداً، ويوجد قرب هذا البرج باب يقود إلى المدينة، وهو إذا ما دخلت منه سوف تتابع سيرك عبر شارع عريض، يقوم فيه على جهة اليمين، قرب القصر الملكي مشفى القديس سابا، وإذا ما تابعت سيرك حوالي رمية سهم على طول الشارع سوف تجد كنيسة الضريح المقدس المشهورة، ومظهرها مثلما جرى وصفه من قبل العديد من الكتاب، والقبو الذي يقوم مقام ضريح جسد الرب هو مضاعف، ففي الجزء الأول منه هناك

الحجرة التي أزيحت، وأبعدت (عن فم الضريح)، وهي محفوظة بغلاف من الرخام الأبيض، ويوجد في الجزء الآخر، وفي الجانب الشمالي صخرة منحوتة مرتفعة قرابة الذراع فوق الأرض المرصوفة، فهناك مدد الجسد العاري لمانح الحياة، وهو الآن كما يشاهد مزين من حوله بالذهب الخالص، بفضل حب وإيمان مولاي ومعلمي مانويل كومينوس البروفيجنتوس، وبوساطته، وعلى مقربة منها موقع الجلجلة، حيث مكان الجمجمة، والحفرة التي عملت داخل الصخرة من أجل الصليب، والصدع في الصخرة، وهو الصدع التي حدث أثناء الآلام فوق الصليب، ويوجد تحت الصدع مكان مجوف في الصخرة، فيه جمجمة آدم، وبقايا دم ربنا الذي تلطخت به عندما سفك فوقها، وتتشكل الكنيسة التي بنيت فوق الجلجلة من أربعة أقواس وقبة، ويوجد قرب هذه الكنيسة كنيسة واسعة تحت الأرض، ففيها جرى اكتشاف الصليب المبجل للمسيح ربنا والمانح للحياة، ويوجد باتجاه الجانب الشرقي من المدينة كنيسة، هي قدس الأقداس، وهذه الكنيسة فائقة الجمال، ولها سقف مقنطر، وهي قائمة فوق الأساس القديم لهيكل سليمان الشهير، وهي مزينة من كل من الداخل ومن الخارج بالرخام المتعدد الألوان وبالفسيفساء، ويوجد على الجانب الأيسر لهذه الكنيسة قاعتين مقنطرتين، رسم في إحداهن تقديم مولانا المسيح، لأنه في هذا المكان تلقى سمعان الرجل البار مولانا المسيح بين ذراعيه، ورسم في الأخرى السلم الرائع الذي رآه يعقوب، يصل إلى السماء، مع ملائكة الرب يصعدون عليه وينزلون، وتحت صورة السلم هذه من الممكن رؤية الحجر الذي وضع يعقوب رأسه عليه، ويوجد على جهة اليمين فتحة تقود إلى كهف تحت الكنيسة، فيه دفن النبي زكريا، الذي قتله اليهود — وفقاً لما جاء في الانجيل — بين الهيكل والمذبح، وهناك في خارج الكنيسة ساحة كبيرة مبلطة، هي — كما أظن — أرضية الهيكل القديم، وقرب الباب الذي يؤدي إلى جيسماني المقدسة توجد كنيسة القديس يواكيم

والقديسة حنـة، وفيها تمت ولادة العذراء الطاهرة، وعلى مقربـة من هناك تنبع مياه«البركة الواقعة قرب باب الضأن».

١٥— وبعد هـذا، وفي خارج المدينة، باتجاه الجزء الشرقـي، وفي وسط ما يشبـه الوادي العظيـم هوة تقسـم جبل الـزيتون وتفصلـه عن المدينـة المقـدسة، وهنـاك يقـع مـوقع اسمـه جيسماني، فيـه قبر سيـدتنا العـذراء الأعظـم قداسـة، مـع الحديقة التـي غـالباً مـا استراح فيهـا مخلصنا مـع حواريه، وهنـاك أيضاً ثلاث كنائس أيضاً، القصوى منهـن موجودة على اليسـار، وهي قـائمة في مكـان منخفض تحت الأرض، تحتـوي على القبر المبارك للعـذراء، وهذه الكنيسة طـويلة جـداً، مع سقف نصـف مقنطر، ويقـف القبر في وسـط الكنيسة، وهـو يشبـه منبر، قـد عمل مـن الحجـر، وذلك على شكل مبنـى مؤلف من أربعة أقواس، وعلى الجهـة الشرقية منه ما يشبه الفراش، المعمـول من الصخرة نفسها، وهو مزيـن برخام أبيض، ففوقه جرى تمديـد الجسد الطاهر للعذراء المباركة من قبـل الرسل، وذلك بعـد جلبه مـن صهيون، وفـوق هذه الكنيسـة هناك كنيسـة أخرى، هـي عبارة عن كهـف، فيه تلفظ الرب بـدعائه، وازداد نوم الرسـل عمقاً،ونام، وتقوم الكنيسـة الثالثة عنـد سفح جبل الزيتـون، وذلك على مسافـة رمية حجر، فهنـاك — تبعاً لما يخبرنا بـه الانجيل — قام مـولانا، بعد تـوجيهه اللوم لحواريـه بسبب كسلهـم، بحمل نفسـه ثانيـة على الصلاة، ووقتهـا تصبـب العرق منـه مثـل قطرات من الدم، وحـدثـت في هذه الحديقـة حـادثـة الخيانـة، وقبّـل يهوذا خـداعاً معلمـه، وقـام الـرعاع مـن اليهـود بـالامساك بـه بشـدة، وفي الجهة المقـابلـة من الحديقـة، وفي الجزء الأعلى منها، في مقـابل صهيون، هنـاك كنيسة، وتحتهـا كهف، دخل إليـه بطرس بعد نكـرانه(للمسيـح)، وبكى بمـرارة، وتوجـد هناك صـورة للرسـول في حزنه،وفوق جيسماني وكنيسة دعاء الرب، مـن الممكن رؤية جبل الزيتون، وهو مفصول — كما قلت من قبل — عن المدينـة المقدسة بوساطة وادي

شعفاط، ووادي البكاء، والمكان — بناء عليه — هو هضبة، هي أعلى قليلاً من المدينة، تبدو ليست واسعة جداً، عندما ينظر إليها من اتجاه المدينة، لكن عندما تنظر إليها من اتجاه الأردن وبيت عنيا تبدو بالفعل مرتفعة كثيراً، ذلك أنها تأخذ بالارتفاع بشكل لطيف من الصحراء، وعلى قمة الجبل المكان الذي غالباً ما تحدث فيه مخلصنا مع حواريه بعد قيامته، وحيث صنع فيما بعد معجزة صعوده التي هي الأعظم سمواً، وقرب هذا المكان، في القبو في الأسفل، من الممكن رؤية المكان الذي أمضت فيه القديسة بيلاجيا جهادها التأملي، وحيث يستريح جسدها المبارك في داخل نعش حجري، وقرب هذا هناك كنيسة أخرى، حيث أعطى مولانا حواريه دعاء«أبانا الذي»، ويوجد على الجانب الأيسر من المدينة، دير هو للرهبان اللاتين، قد بني — كما قيل — فوق أساسات دير قديم، كان قد تأسس من قبل ميلين Melaneشهور،وأمام هذا الجبل، وخلف المدينة، على طريق قدومك من السامرة، يوجد دير(دير كفر جمالا) إليه جلب جمائيل الجسد المبارك والمقدس للرائد الشهيد المبارك ستيفن بعد رجمه بالحجارة، وتمدد في المكان الذي ذكرناه من قبل، ويستمر الوادي الذي يبدأ من جيسماني حتى دير القديس سابا، وصحراء روبا، التي تقوم حول البحر الميت وسدوم.

١٦— خلف جيسماني مباشرة، وعلى مسافة لاتزيد عن رمية سهم، يقوم بناء يدعى«الكتل Kettle(عمود أبسالوم)، قد بني فوق صخرة، وله شكل رباعي، وهو مرتفع، حوالي رمحين، كما أعتقد، وهو متدرج على شكل هرمي من القاعدة حتى القمة، ويوجد فيه راهب إيبيري يعيش حياة عزلة، وهو يعمل في سبيل خلاصه الشخصي، ويلي هذا هضبة عظيمة، فيها عدد متنوع من الكهوف الاصطناعية، حملت اسمها من اسم العذراء، وهي مسكونة من قبل عدد ضئيل من الرهبان الأرثوذكس، وبعدد كبير من الرهبان الأرمن واليعاقبة، ويتسع الوادي بعد

هذا عند المكان الذي فيه وادي النـواح، ويلي هذا حقل الفاخوري الذي شري بثمن مولانا لـدفن الغرباء فيه، ويلي هذا بركة سلـوان، التي تتدفق مياهها فوق جميع تلك المنطقة الجافة، وخلف هذه يمكن رؤية مروج ذوات مساحات ضيقة وذلك في الجزء المنبسط من الوادي، وفيها أشجار نامية هناك، أما النبع نفسه فمحاط ومزين بأقواس وبعدد كبير من الأعمدة، ويمتد هذا الوادي — حسبما قلت — حتى دير القديس سابا، مسافة أحد عشر ميلاً، ويتسع الوادي فيشكل فجوة واسعة جافة، فيها من الممكن رؤية: الدير، والكنيسة، وضريح القديس، ويوجد أمام الدير، على جانبي الوادي، كهوف وأبراج صغيرة، مسكونة من قبل الذين تخلوا عن الدنيا وعن مباهجها، من أجل مملكة السماء، فهم قد تحملوا حر الدنيا الذي لايحتمل، وأطفأوا بوسائل إطفاء النار، الذي لايطفأ، وينشطر الوادي، في البقعة التي تقوم عليها الكنيسة مع قبر الأب المقدس سابا، الذي ألهم من قبل الرب، إلى ثلاثة أقسام، ويصبح عميقاً جداً، وقد بنى القديس أبراجاً على حافته، وبنيت الكنيسة في وسط هذه الأبراج الكبيرة، وعمل الذين من حولها هذه الحجيرات الصغيرة للعبادة والتأمل، وذلك حسبما جاء في الرواية التي تحدثت عن حياته الرائعة، وهذه الكنيسة مليئة بما هو هام، ذلك أنها واسعة، وطويلة، ومشبعة بالضوء، وبلاطها مزين بالرخام الذي مع أنه منخفض التكاليف، لأنه جلب من القفار، قد صنع بشكل غريب ، وهناك في واجهة المعبد ساحة مبلطة، وفي وسطها ضريح أبانا الكبير سابا، وهو مرتفع فوق سطح الأرض حوالي القامة، ومزين بألواح من الرخام الأبيض الناصع، وفي القرب، ومن حول هذا، وتحت الأرض، يمكن رؤية قبور الآباء الذين أشع نورهم في الفيافي، وبين هؤلاء الشاعرين القديمين: س.س.كوزماس، ويوحنا(الدمشقي)، ويوجد هنا حوالي الأربعين رجلاً من الملهمين، وهم أعظم من سواهم بكثير، بينهم ستة قد تحادثوا مباشرة مع الرب، وأسماء هؤلاء: ستيفانوس، وثيودوروس، وبولص، وجاء الرابع

بينهم من ميجالبوس Megalopols ، والخامس إسباني، والسادس هو يـوانـس العمودي، الـذي هـو واسـع الشهـرة بين الناس لنفـاذ بصيرتـه الروحانية.

١٧— وإذا ما عدت إلى المدينة المقدسة، ليـس من خلال الوادي بل عبر الشعاب الجبلية المجاورة، من مسافة ستة أميال عنها، سوف تجد دير أبانا المقدس ثيودوسيوس الكانوبيارخ Coenobiach (خربة ديـــــر ابن عبيد)، وكان هـذا الدير محاط بأنـواع من الأبراج، وعلى حوالي رميـة سهم من أمـامه تـوجد القـاعة، التـي فيها — حسبما نقـرأ في ترجمة حيـاته — انطفأ فحم كـان قد اشتعل في يد القـديس، وتقوم في وسط الـدير، وفوق أرض مـرتفعة، الكنيسـة، التي لها سقـف مستـدير، والتـي تحتها كهـف، يوجد فيه ضريح القديس، ومتصل بـه عدة غرف، ترقد فيها آثار قديسين كبار، وعنـدما تنـزل على الدرج إلى هـذا الكهف، سـوف تجد على جانبـه مدخـل كهف آخر، دخـل إليه الحواري القـديس باسيليـوس، وبناء على طلب هذا القديس، قام بـاختيار قبره — حسبما جاء الخبر في تراجم حياة الآبـاء — وتمدد ميتاً هنـاك، وشوهـد بعـد ذلك لمدة أربعين يـوماً ينشـد تراتيل في وقت القداسات مع القديسين والأخوان.

١٨— وفي مقابل الدير المتقدُم الـذكر، وقليلاً باتجاه اليمين، وفي عمق قفار الأردن يوجد دير القديس يوثيميوس Euthymius الكبير(خربة مرد)، وهو دير محصـن بأبراج وبسواتر دفاعية عظيمـة، وفي وسط هذا كله تقوم الكنيسة التي هي مثل الكنائس الأخـرى لها سقف مستدير، ويوجد تحتهـا كهف، وفي وسـط الكهف ضريـح يوثيميـوس الكبير، الذي يشبـه آبدة سـابا الملهم، ذلـك أنه مغطى مثلـه بالرخـام الأبيض، ومدفـون هنا أيضاً آثـار الأبويـن المقدسين: بـاساريـون Pasarion، ودومشيان Do-mitian.

١٩— ويوجـد خلف هذا الـدير فراغ فـاصل مقداره اثنـي عشر ميلاً،

تجد بعده وادياً عظيماً، يتدفق في وسطه مسيل ماء، ويوجد على الطرف المقابل لهذا الوادي دير كوزيبيا(دير القلط)، وهو شيء لايصدق حين يوصف، وأعجوبة ملهمة حين تبصر، ذلك أن حجيرات الرهبان هي أبواب كهوف، أما الكنيسة نفسها مع المقبرة، فقد حفرتا داخل الصخر الأصم، ويسخن بالعادة إلى درجة عالية بوساطة أشعة الشمس، حتى أن الانسان يمكنه أن يرى فيه ما يشبه شكل الأهرام، من ألسنة اللهب المندفعة من الصخور، أما الماء الذي يشرب منه الرهبان فهو يتدفق من الحال الذي سنصفه الآن: هناك ما يشبه البركة ذات المياه الآسنة، وتسخن هذه بوساطة أشعة الشمس عند الظهيرة في منتصف الصيف، وتسخن سخونة كاملة بوساطة الأشعة النارية، ورأيت في هذا الدير عدداً كبيراً من الرجال المقدسين، كان أحدهم صانعاً للأعاجيب، وهو يتحدث مباشرة مع الرب، واسم هذا الشيخ لوقا، ومع شيء من الخطر تسلقت إلى هذا الدير، ثم نزلت منه وذلك بسبب كل من الشعاب الطبيعية للمكان، والحرارة الشديدة جداً للشمس.

٢٠— ويأتي بعد هذا طريق طويل، وضيق، ووعر جداً، يقود إلى خلف القفار، التي قبل أن تصل إليها ترى في وسطها جبلين، يمر بينهما الطريق إلى أريحا، ولايوجد على هذا الطريق مكان مرصوف بالحجارة، لكن مع هذا من الممكن تقصي الخطوط العامة الباهتة لذلك، وفي هذه الأيام جميع المناطق المجاورة مليئة بينابيع المياه لاستخدام الديرة التي تأسست في القفار، لأن البلاد قد قسمت ووزعت بين هذه الديرة المقدسة، ولهذا صارت مشجرة بشكل جيد ومليئة بالكروم، وقد بنى الرهبان أبراجاً فوق حقولهم، وجنوا محاصيل غنية منهم، ويبدو مظهر جميع الصحراء، والأردن وبحر سدوم الميت، وذلك وفقاً لتقديراتي، شبيه كثيراً بمنطقة أكريس Achris (في إليريا أو مقدونيا) مع استثناء وحيد، هو أن الماء ينبع من بحيرة أكريس، ويروي كثيراً من الوديان

المجاورة، التي يدعوها السكان باسم: «ستروغاس Strougas »، بينما يصب الأردن هنا في البحيرة، فضلاً عن هذا إن عرض القفار أكثر بمرات عدة من عرض سهل أكريس.

٢١— ويقع على طرف اليمين للجبل المزدوج، الذي تحدثت عنه، طرف البحر الميت ومن خلفه سيجور، وخلف هذه الصحراء، من الممكن رؤية صحراء روبا Ruba الكبيرة وذلك بعد مايجتاز الانسان بين ديرين، وأقصد بهذا ديري القديس يوثيموس Euthymius ، ودير الراعي «اللورا Laura»، وعلى يسار الجبال والطريق من الممكن رؤية الرابية، التي تعرض عليها مخلصنا بعد صومه لمدة أربعين يوماً لغوايتين من قبل الشيطان، الذي تراجع مقهوراً ومجللاًبالعار، وفي مقابل هذه الرابية، وعلى مسافة، يمكن أن أقول، تساوي ستة أميال، هناك كنيسة فوقها، حيث تشاور رئيس الملائكة ميكائيل مع يوشع بن نون.

٢٢— ولقد بني على ضفاف الأردن ثلاثة أديرة هي: دير الرائد (يوحنا المعمدان) ودير خريسوستوم Chrysostom. ، وكان دير الرائد قد سوته زلزلة بالأرض، وقد أعيدت عمارته الآن كاملاً باليد الكريمة لإمبراطورنا مانويل كومينوس البروفيروجنتوس، المتوج من قبل الرب، ذلك أنه الأول بالاهتمام الفائق بأعمال إعادة البناء، وعلى مسافة حوالي رميتي سهم من هناك يجري الأردن، وهو النهر الأكثر قداسة بين الأنهار، حيث فيه قام مولاي يسوع المسيح، وهو متمسك بالفقر، بصنع الأسرار العظيمة لخلاصي بوساطة التعميد، وعلى ضفته، على مسافة رمية حجر تقريباً، هناك بناء مربع مقنطر، وذلك حيث عاد الأردن بمجراه، ليحتضن الجسد العاري للذي غطى السموات بالغيوم، وحيث اليد اليمنى للرائد (يوحنا المعمدان) وهي ترتجف عندما لامست رأسه، وحيث أيضاً الروح وقد نزلت على شكل حمامة على الكلمة القريبة منها، وأخيراً حيث صوت الأب قدم الشهادة على أن المخلص هو ابنه.

٢٣— ويوجد بين دير الرائد (يوحنا المعمدان) والأردن رابية صغيرة هي رابية حرمون، حيث وقف عليها المخلص، وأشار بإصبع يوحنا المعمدان إلى الحشود، وذلك عندما أزال ذنوب العالم، وكان بين ديري الرائد ودير كالامون Calamon ، دير القديس جيراسيموس Gerasimus ، الذي أزالته وأزالت أساساته مياه الأردن، ولذلك لم يبق منه أي جزء مرئي، باستثناء القليل من بقايا الكنيسة، وقبوين، وعمود للتنسك، يعيش فوقه شيخ إسباني طويل القامة، وهو شخص لطيف جداً، ويستحق الاعجاب، حيث حصلنا من الحديث معه على كثير من الفائدة، ذلك أن النعم الربانية العظيمة مزينة لهذا الرجل، وإنني أرى من الضروري أن أتحدث إلى جميع الذين يهتمون بسرور بالأشياء الربانية، فعن طريق المعالجة صنعت معجزة من قبل هذا الرجل قبل زيارتنا له، ويوجد لدى دوامات الأردن وتعرجاته، كما هو متوقع، قطع أرض كثيرة متصلة بها، نمت فيها كميات كبيرة جداً من القصب، اعتادت أن تنمو هناك، وهذه الأقصاب مأوى للأسود، وقد اعتاد أسدان على القدوم كل يوم سبت إلى صومعة الرجل العجوز، حيث كانا يحكان رأسيهما، ويطلبان الطعام من خلال تعبيرات أعينهما، وكان الطعام يقدم لهما بكل سرور، ومن ثم يعودان وهما مسرورين، إلى مأواهما قرب تعرجات النهر، وكان طعامهما عبارة عن خضار مبللة بالماء، وخبز مصنع إما من طحين القمح أو من طحين الشعير، وحدث في إحدى المرات أنهما عندما قدما وطالبا بطعامهما المعتاد بحركات أعينهما، لم يكن لدى الرجل العجوز من الوسائل مايرضي به هذين المخلوقين، لأنه حدث أن هذا الرجل المقدس لم يتسلم طعاماً لمدة عشرين يوماً، ولذلك قال لهما: «أيها الوحشان، بما أنني لا أمتلك أية امكانيات للتخلص من ضعف طبيعتي، ولا أي نوع من الطعام منذ عشرين يوماً، ولم أزود نفسي بالضروريات المعتادة، إنه بأمر الرب القادر بكل سهولة على تلبية حاجاتنا، أرى أنه من الضروري وجوب ذهابكما إلى نهر الأردن، وجلب قطع صغيرة من

الأخشاب، يمكنني أن أصنع منها بعض الصلبان الصغيرة، وإعطائها من أجل المباركة إلى الرجال الذين نذروا الحج، وبما أن كل واحد من الرجال من الممكن أن يعطيني بالمقابل بعض القطع النقدية الصغيرة، بهذه القطع سنتمكن من شراء بعض المؤن لكم ولي»، فهكذا تكلم، وأصغى الأسدان إليه، وتوجها نحو نهر الأردن، وكأنهما يمتلكان العقل، وبعد هنيهة، كانت المعجزة، فقد حملا جذعين من الأخشاب فوق رقبتيهما، ووضعاهما عند قاعدة العمود، ثم بادرا بالفرار إلى مستنقعات الأردن، وهذا يكفي، ودعونا الآن نتابع وصف الأماكن.

٢٤— وقد بني دير العمود أيضاً مع أبراج، وأسوار وقاية، وتقوم في وسطه كنيسة بنيت بالملاط القوي، وهي مغطاة بسقف مقنطر متوضع فوق أقواس اسطوانية، وهي متصلة بوساطة هذه الأقواس بكنيسة مقنطرة صغيرة جداً، ويوجد في البروز صورة للعذراء مع المسيح المخلص فوق ذراعيها، وهي تشبه بشكلها، ولونها وحجمها لوحة أياصوفيا في المدينة الامبراطورية، وهناك رواية قديمة بأنها قد رسمت بيد الرسول الانجيلي القديس لوقا، ومما يؤيد هذه الرواية ويدعمها المعجزات المتوالية التي تصنعها هذه الصورة، والروائح الذكية المنعشة التي تصدر عنها، ويلي هذا الدير، على مسافة خمس غلوات تقريباً دير خريسوستوم، وعلى بعد رمية سهم من هناك صومعة يعيش فيها رجل طويل حياة تأمل، وهو رجل اسباني، له عادات بسيطة، وكلام لطيف، كان قد مارس من قبل لسنوات طوال حياة التأمل فوق صخرة كانت قائمة قرب شاطىء بحر أضاليا، حيث كنت قد قابلته، عندما كنت أخدم في جيش الامبراطور المتألق جداً مانويل كومينوس البروفير وجنتوس.

٢٥— وخلف الأردن، في مقابل مكان تعميد مولانا، هناك الكثير من الشجيرات النامية، في وسطها وعلى مسافة قرابة الغلوة الواحدة، يوجد

كهف يوحنا المعمدان، الذي هو صغير جداً، ولايمكنه استيعاب رجل حسن البنية وهو منتصب على قدميه، ومقابل هذا، في عمق الصحراء، هناك كهف آخر سكن فيه النبي إلياس عندما حمل بعيداً بوساطة عربة نارية، وفيما وراء هذين الكهفين، وعلى ضفاف الأردن، توجد — كما يقال — القفار، التي رأى المبجل زوسيموس Zosimus ، أنها لائقة للحياة الملائكية للسيدة المصرية، وخلف الهضاب تقوم القفار التي تقود إلى سيناء، ورأسو Rhaetho والبحر الأحمر، وهنا نهاية حديثي عن القفار.

٢٦— ويوجد على الطرف الأيمن من مدينة القدس المقدسة، باتجاه برج داود، هضبة مغطاة بالكروم، وهناك فوق الجزء المنخفض منها دير للرهبان الاسبان وُجدت في محيطه — كما يقال —شجرة الصليب الرائع، ومن هناك قطعت، وتبدأ خلف هذا المنطقة الجبلية، وهي تسمية مناسبة جداً، لأن الهضاب تغدو لغلوات عديدة منحدرة وأكثر انحداراً، وعلى مسافة حوالي الأربع عشرة غلوة من المدينة المقدسة يمكن رؤية بيت زكريا النبي، لأنه بعد البشارة للعذراء الطاهرة، نهضت وسارت مسرعة، وعانقت اليزابيث، التي قفز طفلها في داخل رحمها، وكأنه بقفزته يقدم التحية للسيدة، وتفوهت السيدة بتلك الأغنية النبوية التي هي محط الإعجاب، وهناك قلعة في هذا المكان، وكنيسة قد بنيت فوق كهف، ففي النهاية القصوى للكهف حدثت ولادة الرائد(يوحنا المعمدان)، وعلى مسافة حوالي رميتي قوس، فوق الجزء العلوي من الجبل، هناك الصخرة التي انشقت، واستقبلت في داخلها أم المعمدان مع ابنها وهو على ذراعيها، عندما كانت هاربة، أثناء قيام هيرود بذبح الأطفال.

٢٧— خارج القدس، وبين الطريقين، اللذان يقودان أحدهما إلى المنطقة الجبلية والآخر إلى دير وبيعة(القديس سابا) هناك جبل، وطريق

فوقه، يقود من جبل صهيون المقدس إلى بيت لحم، وتقع مدينة بيت لحم على حوالي ستة أميال من المدينة المقدسة، ويقوم في منتصف الطريق بينها وبين المدينة المقدسة دير النبي المقدس إلياس، الذي كان قد بُني من قبل رجل رباني في عصور قديمة جداً، غير أنه تهدم كلياً بوساطة زلزال، وعلى كل حال جرت إعادة عمارته على يد المحسن العالمي، معلمي وامبراطوري، فقد رفعه من أساساته بناء على رجاء رجل سرياني، هو مقدم طائفته، ويشكل ضريح راحيل مثلثاً مع الدير ومع بيت لحم، وقد بني على شكل مقنطر، توضع فوق أربعة أقواس، وفي منتصف الطريق بين بيت لحم، ودير الراعي، يمكن للانسان رؤية حقل، وفي منتصف الحقل هناك كهف، فيه سمع الراعي المبارك، وهو يتولى الحراسة في الليل، الملائكة ترتل وتغني قائلة:«المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام والخلاص للعالم»، وبنيت مدينة بيت لحم المقدسة فوق رابية صخرية، وفيها هناك الكهف المقدس والمزود، والبئر الذي رغب داود أن يشرب منه، وكذلك من الممكن رؤية كنيسة طويلة جداً، قد بنيت فوق قمة الكهف، وهي ذات حجم كبير، وعلى شكل صليب، مسقوفة بجذوع من الشجر غير قابلة للتلف، وأخذ السقف فوق المذبح شكلاً حجرياً مقنطراً، وبنيت هذه الكنيسة الجميلة جداً والواسعة، أيضاً باليد الكريمة لامبراطوري المنقذ للعالم، الذي زين أيضاً الكنيسة كلها بأعمال الفسيفساء الذهبية، وقام الأسقف المسؤول في هذا المكان، وهو ممن يمارس الطقوس اللاتينية، فوضع في كثير من الأماكن، ولاسيما في قدس الأقداس نفسه فوق الكهف المقدس، صورة جميلة للامبراطور، ربما تعبيراً عن الشكر له على كرمه، ووضع كهف المزود والبئر هو كما يلي: تقوم على الطرف الأيسر لقدس الأقداس الفتحة المؤدية إلى الكهف المقدس، وإلى جانب ذلك البئر الذي رغب جدنا داود أن يشرب منه جسدياً وروحياً، وقد قام رجلان كانا يحتلان مكانة عالية لديه بشق طريقهما خلال معسكر العدو،ونضحا الماء في دلو، وجلباه لإطفاء عطشه، وقام هو بدوره

به المشهور، بصب الماء وإراقته تشريفاً للرب وتمجيداً، الأمر الذي
ما دد أصداء شهرته في الخارج، وينزل الانسان من مدخل الكهف
إلى قعره بوساطة ست درجات، وعلى جانبه الشمالي يوجد النزل المقدس
الذي ولدت العذراء فيه بالمسيح المخلص، وبذلك صارت جميع
المخلوقات التي خلقها الرب بالجسد، والعالم كله، جديدين، وأنا العبد
الفاني، صرت غنياً بوساطة لاهوت ربي وخالقي الذي انتزع فقري
ووضعه على نفسه، وعلى بعد درجة تحت هذا من الممكن رؤية مزود
الحيوانات، الذي له شكل رباعي متساوي الأطراف، وهو الذي غطاه
القدماء برخام أبيض، وقد تركوا فتحة مستديرة في وسطه، من خلالها
يمكن رؤية جزء من ذلك المزود الذي حوى الواحد الأبدي، الذي هو
أوسع من السموات، وأضخم بكثير من الأرض، والبحر، والأجزاء القائمة
تحت الأرض، وقد حواه بسهولة عندما كان رضيعاً، مع أنه هو الذي لم
يكونوا قادرين على احتوائه، وقد قفزت مرحاوأنا أكتب، وكنت كلي
روحياً في داخل ذلك الكهف المقدس،ورأيت الغطاء الذي غُطّي به
مولانا عند ولادته، والفراش الذي وضع عليه الطفل الحديث الولادة في
المزود، وشعرت بالنشوة من خلال التفكير بحب المخلص لي، ومن
خلال فقره الشديد الذي جعلني جديراً بمملكة السماء، ولقد رأيت
الكهف ذاك قصراً، والملك قد جلس على صدر العذراء كأنه جالس
فوق العرش، ورأيت أيضاً جوقة من الملائكة تحيط بالكهف، والحكماء
المجوس يجلبون هداياهم إلى الملك، ولقد امتلأت بجميع ألوان النشوة
والسرور لدى تأملي لأنواع النعمة التي رأيت نفسي جديراً بتلقيها، وتولى
الفنان، بيد بارعة، رسم جميع العجائب التي وقعت في ذلك الكهف،
ويوجد في البروز صورة العذراء وهي مستلقية على فراشها، ويدها
اليسرى موضوعة تحت مرفقها الأيمن، وواضعة وجنتها فوق يدها اليمنى
وهي تنظر إلى طفلهامبدية لطفها الزائد بابتسامتها المعبرة وفي لون
وجنتيها، ذلك أن لونها لم يتغير، ولم يظهر عليها الشحوب، مثل التي

ولدت حديثاً طفلاً، وذلك للمرة الأولى، لأنها وهي التي عدّت أهلاً لحمل طفل، كانت أقوى من رجل، ولا بد أيضاً أنها قد تجنبت آلام الولادة، وكان خلفها الثور والأتان، والمزود، والطفل، ومجموعة الرعاة الذين تردد في آذانهم صوت السماء، لذلك تركوا قطعانهم، وسمحوا لأغنامهم بأن ترعى دون مراقبة، الأعشاب التي كانت قرب النبع، وأسندوا لكلبهم مهمة المسؤولية عنهم، في حين رفعوا رقابهم نحو السماء، وأصغوا بتلهف إلى ترداد الصوت، وقد وقفوا باتجاهات متنوعة، وذلك حسبما رأى كل واحد منهم الوقفة الأسهل له، وبدت عصيهم للرعي بلا فائدة، وكانت أعينهم شاخصة نحو السماء، وأيمانهم ممتدة نحو الخلف، وكأنها ترمي سهماً، وآذانهم مصغية بتشوق، ومع هذا لم يحتاجوا لسماع الصوت مرة ثانية، لأن الأعين أكثر وثوقاً من الآذان، حيث أن ملاكاً قد قادهم وأراهم الطفل مستلقياً في المزود، ولم تلتفت الحيوانات لرؤية هذا المشهد بل حملوا أنفسهم بحماقة وصرفوها، بعضهم نحو الأعشاب، وبعضهم الآخر نحو النبع المتقدم الذكر، لكن الكلب، ذلك المخلوق الذي يبدو متوحشاً مع الغرباء، قد ظهر يحدق عن عمد بالمشهد غير المعتاد، بينما قفز الحكماء من على ظهور خيولهم، وهم يحملون هداياهم بأيديهم وجثواعلى ركبهم، وقدموها إلى العذراء مع رهبة وتهيب.

٢٨— وعلى حوالي الميلين خارج بيت لحم المقدسة، وفي دير الراعي، هناك كهف فيه أُنذر الحكماء بهاتف سماوي بعدم العودة إلى هيرود، وقد عادوا عبر طريق آخر إلى بلادهم، وعلى بعد حوالي الستة أميال خلف هذا الدير، وقرب صحراء روبا، وفي دير القديس شارتون، وعلى مسافة معتبرة خلفه يوجد الضريح المزدوج لابراهيم، الموجود في الخليل، وبلوطة ممرا، التي تحتها استضاف البطريرك إبراهيم الثلاثة المقدسين، وهذه هي أوصاف(الأماكن المقدسة) من عكا حتى القدس، المدينة المقدسة، وذلك عبر الجليل، وكذلك الأردن والقفار المقدسة،

والأماكن القائمة على شاطىء البحر، وهم كما يلي:

٢٩— على بعد حوالي الستة أميال من القدس، المدينة المقدسة، تقع مدينة أرماثم(رامة — النبي صموئيل) التي ولد فيها النبي صموئيل العظيم، وعلى مسافة حوالي السبعة أميال، أو بالحري أكثر، خلفها، تقع مدينة عمواس الكبيرة، وهنا تمتد منطقة الرملة حوالي الأربعة والعشرين ميلاً، ففيها من الممكن رؤية الكنيسة الكبيرة للشهيد الكبير المقدس جرجس(اللد)، وهنا كان قد ولد، وقام بأعمال قداسة عظيمة،وهنا أيضاً قبره المبارك، والكنيسة مستطيلة، وفي البروز تحت المائدة المقدسة، يمكن للانسان أن يرى فتحة ضريحه، المحاط كله برخام أبيض، ومن المفيد أن نروي ما سمعته من الكهنة التابعين للكنيسة حول ما حدث قبل عدة سنوات مضت عند ضريح القديس، فقد قالوا : غامر الأسقف اللاتيني المغتصب الحالي، بمحاولة فتح فم الضريح، وعندما أزاح اللوح الرخامي الذي كان مغلقاً له وانتزعه، تكشف له وجود كهف كبير، وجد في داخله ضريح القديس، وعندما حاول أيضاً أن يفتح هذا، شوهدت نا ر ملتهبة صادرة من الضريح، وقد تركت واحداً من الرجال نصف محروق، والآخر محروقاً حتى الموت.

٣٠— وتقع خلف هذه المنطقة منطقة قيسارية فيليب(اقرأ: فلسطين)، وقيسارية مدينة واسعة وكثيرة السكان، وقد بنيت على شاطىء البحر، وفيها بالفعل ميناء رائع، صنع بالبراعة الانسانية، وقد أنفق هيرود أموالاً عظيمة في سبيل بنائه، وهنا سأل المسيح الحواريين:«من هم الذين يقولون إنني ابن الانسان؟»، وأجابه بطرس قائلاً«أنتم المسيح ابن الرب»، مظهراً بكلماته حرارة حبه.

٣١— وخلف هذا يقع جبل الكرمل، الذي عنه نقرأ كثيراً في كل من العهدين القديم والجديد، وهو جرف طويل، يبدأ عند ميناء عكا وحيفا، ويمتد حتى جبال الجليل، ويقع كهف النبي إلياس عند نهاية السلسلة

الجبلية، في المكان الأقرب إلى البحر، وفي هذا الكهف بعدما عاش ذلك الرجل الرائع حياة ملائكية، رفع إلى السماء، وكان يوجد عند هذا المكان ديراً واسعاً، وذلك حسبما تحدثنا الأبنية المهدمة الباقية حتى اليوم الحالي، ذلك أن الزمان الذي ينهك كل شيء، وغارات العدو المتواصلة، هدمته كلياً، وقام على كل حال منذ بعض الوقت راهب كان كاهناً مرسوماً، وكان صاحب شعر أبيض، وهو من أهل كالبيرا، قام إثر رؤيا للنبي، فجاء إلى ذلك المكان، حيث سكن بين خرائب الدير، وقام ببناء ساتر دفاعي صغير وبرج وكنيسة صغيرة، وجمع حوالي العشرة رهبان، وقام بسكنى المكان المقدس حتى هذا اليوم.

٣٢— ولسوف أوقف هنا أعمال وصفي، بعدما أكملت الطواف حول الأماكن المقدسة، وإذا ما عدّ قارئي ورأى أن هذا عملاً مفيداً، وقتها أعدّ نفسي بأنني نلت التعويض على تعبي، وحظيت بالجائزة، وإذا لم ير ذلك، ليكن مايلي: أعد يا بني إليّ الذي أنجبه، فبثرثرته يذكّرني بهذه الأماكن المقدسة، وذلك سوف ينعشني بحلاوة في خيالي ويذكّرني بهم.